16

فصلية تعنى بشئون الفكر والادب

يصدرها فرع إتحاد الادباء والكتاب اليمنيين بتعز

● تعهد جديد..

للوجوه والامكنه

● إستضاءة

●المنهج الإجتماعي في الدراسة الأدبية

المجلة

فصلية تعنى بشئون الفكر والأدب

يصدرها: فرع إتحاد الأدباء

والكتاب اليمنيين

تعز

رئيس التحرير: محمد عقيل الإرياني

مدير التحرير: عزالدين سعيد أحمد

نائب

مدير التحرير: عبدالله علي سلطان

الإخراج الفني: مهندس/ طلال العبسي

• ثمن النسخه

في اليمن

١٠ ريالات

في الدول

الأخرى

مايعادلها

• الإشتراكات والإعلانات

يخاطب

بشأنها هيئة

التحرير

المواد التي ترسل إلى المجلة

لاترد سواء نشرت أولم تنشر

المراسلة

الجمهورية اليمنية - تعز

إتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين

ص.ب (٧٠١٣) - تليفون: ٢٠٧٠١

المنهج الإجتماعي في الدراسة الأدبية

د . عبد النبي اصطيف

كلية التربية /تعز

ما الذي يغري دارس الأدب في استلهام علم الإجتماع في مواجهته للعمل الأدبي ؟

إن الإجابة عن سؤال كهذا تحمل في طياتها الكثير مما يوضح إجراءات أتباع المنهج الإجتماعي في الدراسة الأدبية ، وممارساتهم ، وأفاق اهتماماتهم والمسائل والقضايا التي غالباً ما تنصرف عنايتهم إليها .

ثمة جانب في الأدب لايستطيع أي دارس له أن يتجاهله ، أو يقلل من

أهميتـــه ، هو الـجانب الإجتماعي ، فالأدب فـــن لغـــوي ، أي أن أداتـــه اجتماعية ، فاللغة لا تكون إلا حيثُ يكون المجتمعْ ، والجـانب الإجتمـــاعي في اللغة أوضح من أن يشـار إليـــه ، وهنـــاك علـــم حديث من علـــوم اللغة موقوف عليه هو اللسانيات الإجتماعيـــة SOCIOLLNGUISTICS ، والأدب كـــذلك إنشـاء إجتمـاعي ، لانـــه فعـــل اجتماعي يؤدى في مجتمع ، يقوم به منتج هـــو الكـــاتب ، ويتلقـــاه مســـتهلك هـــو القـــارئ ، فـــي إطـار مـــن العلاقات التي ينظمهـــا هذا المجتمع ، ويضم المؤســـسات التربويـــة والجامعيـــة والثقافيـــة والإعلاميـــة وغيرها ، ويدرسه علم خاص هو علـــم اجتمـــاع الادب أو ما يسميه البعض أحيانـــاً بسوســـيولوجيا الأدب (١) ودراســـة SOCIOLOGY OF LITERATURE . الأدب شـــأن اجتمـــاعي يتـــولاه أنـاس أنيطت بهم مهمة اجتماعية ضرورية للحفاظ على

القيم والمثل التي يجسدها الأدب وينقلها من جيل إلى جيل بغاية صون هوية الأمة التي يفصح عنها .

ومعنى هذا أن ثمة الكثير مما يعزز الميل إلى دراسة هذا الجانب من الأدب ، وإلى الاستعانة بعلم الاجتماع على هذه الدراسة . وواقع الحال أن أتباع المنهج الاجتماعي في الدراسة الأدبية لم يقاوموا هذه الإغراءات وانصرفوا لدراسة وجوه اجتماعية شتى من الأدب ، ربما كان من أهمها :

- المنتج ، أو المؤلف أو الكاتب ، أو الأديب .

- النتاج ، أو الأثر الأدبي أو المؤلّف ، أو العمل الأدبي ، أو النص .

- المستهلك ، أو متلقي الأثر الأدبي ، أو قارئه ، أو المتأثر به .

فأما المنتج (٢) فإنه كما يراه أتباع المنهج الاجتماعي في الدراسة الأدبية ، عضو في مجتمع " منغمس في وضع اجتماعي معين ، ويتلقى نوعاً من الاعتراف الأجتماعي والمكافأة كما أنه يخاطب جمهوراً ، مهما كان افتراضياً "(٣) . ومعنى هذا أن موقعه في هذا المجتمع وعلاقاته به هامة جداً في تأديته لعمله في الانتاج الأدبي .

فالطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الكاتب في أصوله ، أو في انحيازه الواعي ، بموقعها في السلم الاجتماعي ، وبدورها في اقتصاد المجتمع الذي يقوم به ، وبتطلعاتها نحو المستقبل ، وبمشكلاتها التي تعاني منها ، وبتاريخها الذي يوجه تحركاتها ، وبرؤيتها للوجود والكون من حولها تترك آثارها في الكاتب .

في آداته اللغوية ، وفي الأجناس الأدبية التي يختارها ، وفي الموضوعات التي يعرضها ، وفي طريقة صياغته لها ، وفي الدلالة القريبة والبعيدة التي تحملها آثاره ، وفي التطلعات التي تبشر بها هذه الآثار ، وفي القيم التي تمجدها أو تدعو اليها أو تسوغها .

إنها باختصار تترك بصماتها على كل ما يقوم به في أثناء عملية الانتاج الأدبي ، ولا ننسى أن الأدب كان دائماً سلاحاً تستخدمه الطبقات الأجتماعية المختلفة في صراعها على السيادة في المجتمع ، وغالباً ما كان أداة ناجحة في تعبئة القوى الأجتماعية المتفرقة ودفعها لتحقيق هدف تنشده طبقة اجتماعية ما .

ودارس الأدب معني بدارسة هذا التأثير في أثناء مواجهته للنص الأدبي شارحاً ومحللاً ومفسراً ومفوماً ، ولذا يجد نفسه مضطراً في الغالب الأحيان

للبحث في سيرة الكاتب ومحيطه الذي أتى منه وعاش فيه ، وفي منشئه الاجتماعي وخلفيته الأسرية ، ووضعه الاقتصادي ، وآرائه في عملية الصراع الاجتماعي الدائر في مجتمعه ، وغير ذلك مما ييسر على الدارس مواجهته لنصه ، وبالطبع فإن جمع هذه المعطيات عن الكاتب لايكفي ، لأن تفسير صلتها بالآثار الأدبية أمر في غاية الخطورة والصعوبة في آن معاً . فقد يعتقد البعض أن المنشأ الاجتماعي للكاتب يفرض بالضرورة ولاءً وأيديولوجية اجتماعيين خاصين به ، وسرعان ما يكتشف هولاء أن الأمر ليس بهذه الآلية . إذ هناك العديد من الكتاب الذين " خانوا " طبقتهم وتنكروا لها وانحازوا الى طبقة آخرى مثل عروة بن الورد ، وشلي ، وكارلايل ، وتولستوي ، وغيرهم) وقفوا حياتهم على مصالحها وطموحاتها ومستقبلها ، والكاتب في نهاية المطاف مواطن ، أو

كائن اجتماعي ، له رآيه في المسائل الاجتماعية والسياسية في بلده ، وغالباً ما يملي عليه هذا الرآي ولاءه وايديولوجيته المتصلة بهذه الطبقة أو تلك ، ومعنى هذا أن على دارس الأدب ألا يكتفي بدراسة انتماء الكاتب من الوثائق غير الادبية المتعلقة بسيرته ، بل يعمد كذلك إلى تبين أنتماءه واتجاهه وايديولوجيته من كتاباته أيضاً ، فالأصول الاجتماعية لاتلعب إلا دوراً ثانوياً في المسائل التي يثيرها مركز الكاتب الاجتماعي وولاؤه وأيديولوجيته .

" لأن الكتاب... يضعون أنفسهم في خدمة طبقة أخرى ، غالباً ، فقد كتب معظم شعر البلاط رجال تبنوا أيديولوجية حكماتهم وذوقهم ، ولو أنهم ولدوا في منزلة دنيا "(٤) . ومعنى هذا أن انحياز كاتب ما لطبقة ولفئة اجتماعية شأن تمليه عليه آراؤه في عملية الصراع

الاجتمـــاعي الـدائـــر فـــي مجتمعه . وهذه الآراء تتحدد غالبا بمجموعة من العوامل ربمـــا كـــان مـــن أهمهـــا تكـــوين الكـاتب الـثقـــافي ودوره الاجتمـــاعي الـــذي يؤديه وما يراكمه ذلك من خبرات وتجارب تشكل رؤيتـــه لـلعـــالـم وتوجـــه مواقفـــه مـــن الـطبقـــات والـفئـات الأجتماعية الـمتنـافسة على تسلم مركز القيادة في المجتمع .

والـملاحظ أن انتماء الـكاتب لطبقة أو فئـــة اجتماعيـــة مـــا قـــد تتضـــاءل بالتدريج . فمقابل الانتماء التام الذي نجـده لـدى الشاعر الجـــاهلي (صـــوت قبيلته المفصح عن كل شؤونها الهامه) . نجـد الأنتمـــاء المحدود لدى الكاتب في العصر الحديث حيث يزداد اعتماد الكاتب ، فـــي مـــوارده الأقتصاديـــة ، على نفسه وأنتاجـــه ، وبالتـــالي تـــزداد عنايتـــه بالقارئ أو مستهلك الآثار الأدبية الذي يخاطبـــه ، فالقـــارئ هو المُسهِمُ الأهم

في تمويل عملية الإنتاج الأدبي في أي مجتمع ، وهو من يدفع ثمن الكتاب في نهاية المطاف .

وأما النتاج فالجانب الإجتماعي فيه واضح من خلال تقديمه لعالم محوره الإنسان ، على حد تعبير ميخائيل نعيمه (٥) ، ذلك المخلوق الأجتماعي ، وعلى الرغم من أن هذا العالم غير حقيقي ، بمعنى أنه لايتمتع بوجود حقيقي فعلي ، إلا أن ذلك لايمنع من كونه قابلا* للتحقق تبعا* لقوانين الأحتمال والضرورة . كما يقول أرسطو ، وهكذا فإننا كثيرا* ما نقرأ في نقد الأدب ، عبارات من مثل قول ويلسون فوليت(٦)

" كل شئ في القصة صحيح ، ما خلا القصة كلها " .

او قول مارين مور عن الشعر بانه يقدم (٧) " للمتمعن حدائق خيالية تملؤها هوام حقيقية " .

إن هذا العالم الوهمي الخيالي الذي يعمره الانسان بمصداقية لاغنى عنها لأي كاتب إذا ما رغب في تقديم عمل مقنع جدير بتوقيعه ، بحاجة إلى معرفة نوعية تيسر لنا فهمه واستيعاب ما فيه من علاقات وقيم وشخصيات وأحداث إنسانية ، آي إجتماعية ، وعلم الإجتماع هو المعرفة النوعية الأكثر فائدة في دراسة هذا العالم ، شخصياته ، وعلاقاته ، وقيمه ، وأعرافه ، ونظمه ، ومعاييره المختلفة وغير ذلك . فالكاتب مهما بُعدَ خياله وشطّ لابد أن ينطلق في عمله من واقع انساني ما يستمد مواده منه ويشكّلها بطريقته الخاصة به التي تحمل معها دلالة ما إلى القارئ . وهو في عملية الإنتاج الأدبي لابد أن يصدر عن تجاربه مادة تصلح لبناء عالم مقنع يحمل مصداقية لقارئه أو متلقيه تحفزه على تغييره عالمه هو نحو الأفضل ، بإشارة بيّنة ، أو ضمنية ، إلى هامش

لهذا الأفضل في الحياة الإنسانية .

والأدب بعد ذلك نتاج له أثره في المجتمع وفي أعضائه ، وحسبنا ان نشير في هذا السياق إلى الدور الذي يؤديه هذا الأدب في تكوين الفرد في اي مجتمع فالأدب هو الأداة الأهم التي يلجأ إليها في تربية الناشئة وغيرهم من المجموعات والفئات الإجتماعية المختلفة التي يقرأ لها الأدب أو تقرؤه من المهد إلى اللحد .

والأدب فضلاً عما تقدم وفي كثير من الأحايين يقدم صورة ما عن المجتمع الذي أنتج فيه وعلى الرغم من تفاوت هذه الصورة قرباً وبعداً عن الصورة الحقيقية للمجتمع إلا إنها تظل محتفظة بإرتباطها بها لإنها تكون محفوزة بهذه الصورة على نحو أو آخر وربما كان هذا وراء محاولة البعض دراسة الأعمال

الأدبيـــة بوصفها وثائق إجتماعية . يكتب رينيـــه ويليك في مؤلفه المشترك نظرية الأدب :

" لاشك في أن بالإمكان إستخلاص بعض الصور الإجتماعية من الأدب وفي الواقع أن هـذا العمـل كان أقدم أستخدام للأدب قام بـه دارسوه المنهجيون . يعتقد توماس ورتون ، أول مؤرخ حقيقي للشعر الإنجليزي ، إن الأدب " فضيلة تخصه ، وهي التسجيل المخلص لسمات العصر ، والحفاظ على أبرز تمثيل للإخلاق وأفضل تعبير عنها " . ويرى هذا الكاتب وخلفائه من علماء الآثار أن الأدب أهم كنز ضم العادات والأزياء وإنه مرجع لتاريخ الحضارة ، وخصوصاً عهد الفروسية وإنحطاطه . أما بالنسبة للقراء المعاصرين ، فمعظمهم يستقون إنطباعاتهم الرئيسية عن المجتمعات الأجنبية من قراءة الروايات "(٨) .

ولكن هذا النوع من الدراسة كما يضيف فيما بعد ، يظل ذا قيمة ضئيلة مادام الدارسون يسلمون بإن :

" الأدب بكل بساطه مرآة للحياة ، إعادة إنتاج لها ، وبالتالي ، وبكل وضوح ، وثيقة إجتماعية . ليس لمثل هذه الدراسات قيمة مالم نعرف المنهج الفني للقص موضع الدراسة ، مالم نستطع أن نحدد - بشكل عيني وليس بعبارات عامة فقط - ماهو موقع الصورة من الحقيقة الإجتماعية ، وهل هي واقعية في غرضها ؟ أم إنها ، في نواحي معينة ، هجائية ، هازلة ، أو مثالية ، رومنسية ؟ "(٩) .

ولذا فإن المرء يميل إلى أن يأخذ مأخذا جديا تحذير احد الدارسين الذي يؤكد أنه :

" لايستطيع سوى الشخص الذي يملك معرفة ببنية المجتمع من مصادر أخرى

غـــير المصادر الأدبية المعرف ، أن يكتشف فيما إذا كانت نماذجُ إجتماعية معينة وسلوكها قد أعيد إنتاجها في الرواية ، والى أي حد... أما العنصر الخيالي المحض ، والملاحظة الواقعية ، وما هو فقط تعبير عن رغبات الكاتب ، فيجب أن يفصل بعضها عن بعض في كل حالة بطريقة ماهرة "(١٠) .

وأما المستهلك (١١) فعنصر هام في عملية الإنتاج الأدبي ، وهو اليوم الممول الحقيقي والأهم لها . من هنا فإن المنهج الإجتماعي في دراسة الأدب ينصرف الى تفحص دوره في هذه العملية فيتوقف عند الحوافز الإجتماعية المختلفة التي تجعل القارئ يقبل على قراءة أعمال محددة ، أو شرائها ، مثلما يدرس المثبطات التي تحول بينه وبين هذه القراءة ، أو تجعله يعرض عن أعمال أدبية معينة ، ويحلل أنماط

الإستهلاك وآلياته وتأثيره في مختلف جوانب عملية الانتاج الادبي وعلاقاتهما ، ويدرس الدور الهام الذي يناط بالأدب بشكل مباشر أو غير مباشر في ترسيخ أنماط معينة من النظم والعلاقات والقيم الأجتماعية مثلما يحلل تأثيره في عملية الصراع الأجتماعي بمختلف وجوهها

وعلى الرغم من إيمان المرء بجدوى اللجوء إلى هذه المعرفة النوعية التي يمكن أن يوفرها علم الإجتماع لدارس الأدب في تفحصه للجوانب الأجتماعية فيه ، إلا أنه ينبغي أن يذكر بأن الأدب فن جميل له قوانينه ونظمه وأعرافه ومقاييسه ومعاييره الخاصة به ، والتي يستطيع من خلالها أن يؤدي وظيفته الجمالية في حياتنا ، صحيح أنه يؤدي وظائف عديدة - تربوية واجتماعية وسياسية - ولكن تبقى وظيفته الجمالية

الوظيفة السائدة بين هذه الوظائف لأنها الوظيفة التي تحدد هويته أولاً ومقدار نجاحه في تأدية وظائفه الأخرى ثانياً ، فالأدب يمارس وظائفه كلّها من خلال كونه أدباً ، أي فناً من الفنون الجميلة .

حواشي المنهج الإجتماعي في الدراسة الأدبية :

(١) أنظر على سبيل المثال :

- Diana Laurenson and Alan Swingwood, The Sociology of Literature (Paladin , London , 1972);

- Jane Rrouth and Janet Wolff (eds.), The Sociology of Literature :,

(University of Keel , Keel,1977);

- Diana Laurenson (ed.) ,

The Sociology of Literature :,

Applied Studies

(University of Keel , Keel,1978);

- John Hall ,

The Sociology of Literature

(Longman , London , 1979).

(٢)حول مفهوم "الأديب بوصفه منتجا" "

أنظر فصل "The Author As Producer"

- Terry Eagleton , من كتاب:

Marxism and Literary Criticism

(Methuen,London,1976) pp. (59-83)

(٣)رينيه ديليك وأوستن داريك ، نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ومراجعة د.حسام الخطيب ، ط٣ . (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥) ، ص ٩٧

(٤) المرجع السابق ص(١٠٠) ،

(٥) أنظر فصل " محور الأدب " من كتاب الغربال ، ط ١٢ ، (مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨١) ، ص ص(٢١ - ٢٨) وهو مقدمة كتبها نعيمه لمجموعة الرابطة القلمية التي صدرت عام ١٩٣١ .

(٦)رينيه ديليك وأوستن داريك ، نظرية الأدب ، ص(٢٢٢) .

(٧) المرجع السابق ، ص(٢٢٢) .

(٨) المرجع نفسه ، ص(١٠٦) .

، ١٠٥ ، ملحق

(٩) المرجع نفسه ، ص(١٠٧) .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ص(١٠٧ - ١٠٨) .

(١١) انظر الفصلين الثاني والثالث المعنونين بـ"الوسيط" و"القارئ" على التوالي من كتاب د. إلهام فالي المنهجي ،
فادة السمان - الحب والحرب ؛
دراسة في علم الإجتماع الأدبي

(دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٦) .
والكتاب في الأصل جزء من رسالة دكتوراه المؤلفة في علم الإجتماع الأدبي .